٣٩ أبو الطاهر بن عوف
معلم الفقهاء السبعة بأول مدرسة نظامية

نحن الآن فى رحاب علم وفكر أحد الصالحين الأتقياء. . ولد وعاش ومات بمصر، وأسس فيها أول مدرسة نظامية، مع أن نسبه ينتهى إلى الصحابى الجليل عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه. . الذى عاش ومات فى الأرض التى شرفها الرسول صلى الله عليه وسلم بنوره.

شيخنا الصالح هو أبو الطاهر إسماعيل بن مكى بن عيسى بن عبد الرحمن بن عوف، الذى ولد بالإسكندرية سنة ٤٨٥ هـ، وتوفى بها ودفن سنة ٥٨١ هـ. وهو صاحب أول مدرسة سنية نظامية أنشئت فى مصر.

كان من العلماء الأتقياء الذين يتصفون بالعلم والورع، حتى قال عنه جلال الدين السيوطى فى تأريخه: «كان صدر الإسلام فى زمانه، تفقه على يديه الكثيرون. سمعوا منه، وملئوا الدنيا علماً أخذوه عنه». وقال عنه أبو الحسن بن الحميرى: «كان ابن عوف رحمة الله عليه إمام عصره، وفريد دهره، فى الفقه على مذهب الإمام مالك، وعليه كانت تدور الفتوى، وجمع ـ إلى ذلك ـ الورعَ والزهدَ، وكثرة العبادة، والتواضع، ونزاهه القول والفعل، وصِدْقَ القلب والعقل».

ترجم لهذا الشيخ الجليل أبو الطاهر بن عوف. واحد من المؤرخين، هو ابن سليم الهمذانى، فسجل الكثير من مراحل حياته، وجوانب علمه وفضله، وهو ما ينقله لنا الدكتور جمال الدين الشيال فى كتابه أعلام الإسكندرية فيقول: «كان ابن عوف من العلماء الأعلام، ومشايخ الإسلام. ظاهر الورع والتقوى، كما روى عنه الفقه والتفسير ابن المقدسى».

ويستطرد ابن سليم الهمذانى فى ترجمته للشيخ أبى الطاهر بن عوف ما ينقله الدكتور جمال الدين الشيال فيقول: «وكان بيت أو مقام ابن عوف بثغر الإسكندرية. بيتاً كبيراً. اشتهر بالعلم. وكان فيه جماعة من الفقهاء، اجتمع منهم سبعة فى وقت واحد، كانوا إذا دخلوا مجتمعاً قيل لهم: مرحباً بالفقهاء السبعة، تشبيها لهم بالأئمة السبعة فى المدينة المنورة».

والتقدير هنا لا ينصرف إلى هؤلاء العلماء السبعة بقدر ما ينصرف إلى أستاذهم أبى الطاهر بن عوف، تقديراً لفضله وعلمه الذى لقنه لهؤلاء العلماء السبعة.

وإلى جانب التدريس اشتغل ابن عوف بالتأليف، فوضع شرحاً عظيماً فى الفقه عُرف بالشروح الصوفية، ويعد من أمهات المصادر التى يرجع إليها الدارسون والباحثون فى الفقه الإسلامى، إذ يقع فى ستة وثلاثين مجلداً.

ولا يقل الجانب السياسى فى حياة أبى الطاهر بن عوف عن الجانب العلمى، فقد كانت له مواقف مشهودة له سجلتها كثير من الكتابات، خاصة تلك التى كانت تعلى من شأن العلماء أمام السلاطين والأمراء. ومن هذه الكتابات الموثوق بها كتاب أعلام الإسكندرية للدكتور جمال الدين الشيال، الذى يحدثنا عن جانب من تاريخ ابن عوف السياسى فى عهد كل من الدولتين: الفاطمية والأيوبية، فيقول: «وشهد ابن عوف نهاية الدولة الفاطمية الشيعية، وقيام الدولة الأيوبية.. دولة صلاح الدين الأيوبى بمصر سنة ٥٦٧ هـ وقد زار صلاح الدين الأيوبى الإسكندرية، وحرص فى هذه الزيارة أن يحضر هو وأولاده وكبار رجال دولته دروس ابن عوف، وسمعوا عليه موطأ الإمام مالك بروايته وشروحه وتفسيره».

وتذكر بعض الكتابات الأخرى أنه كان لابن عوف مكانة خاصة عند السلطان صلاح الدين الأيوبى، فيشير إلى ذلك «الصفدى» مؤكداً مكانة هذا العالم الجليل عند السلطان، ذاكراً واقعة استفتاء صلاح الدين الأيوبى لابن عوف عن جواز أن يكون القاضى أعمى، وتقديراً له ولفتواه كتب صلاح الدين إليه يسأله بخط يده. وليس بخط يد أحد من وزرائه أو عماله. وحين وصلته الفتوى عمل بها على الفور ثقة منه بعلم وفضل هذا الرجل الجليل.

ولابن عوف ـ عدا ذلك ـ أفضال أخرى. فإليه يرجع الفضل فى تحديد الصادر بثغر الإسكندرية، وهو ضريبة تجارية تدفع على كل ما يخزّن من بضائع فى الميناء، رتبه لفقهاء وعلماء الإسكندرية كرواتب تصرف كل شهر، وجعل لها ناظراً وشهوداً، وأوقفها عليهم، وعلى ذريتهم من بعدهم.

غير أن الفضل الأكبر الذى يرجع إلى الشيخ ابن عوف هو فى إنشائه لأول مدرسة نظامية سُنية فى مصر. أقامها خصيصاً ليكون هو صاحبها ومعلمها فى آن واحد.

وعن هذه المدرسة وأثرها وصاحبها تسجل الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها مساجد مصر قائلة: «ونستطيع القول فى ثقة واطمئنان بأن مدينة الإسكندرية كانت أول مدينة مصرية عرفت نظام المدارس، وأن أول أستاذ نظامى متفرغ لممارسة هذه المهنة هو الشيخ أبو الطاهر بن عوف».

وقد حدد القلقشندى موقع هذه المدرسة فى مدينة الإسكندرية فقال: «وخرجت أوامر الوزير رضوان بإنشاء المدرسة الحافظية العوفية بهذا الثغر المحروس (أى الإسكندرية) بشارع المحجة».

وقد حقق الدكتور الشيال موقع هذا الشارع اعتمادًا على النصوص التاريخية، وفى مقدمتها النص الأخير للقلقشندى، فتوصل إلى أنه هو شارع أبو قير الحالى.

وقد أورد القلقشندى فى تاريخ المرسوم الصادر بتعيين ابن عوف شيخاً لهذه المدرسة، التى عُرفت فيما بعد بالمدرسة الحافظية العوفية، نسبة إلى أبى الطاهر بن عوف.. وتخليداً لذكره.

* * *